دراسة وتحقيق لنظرية النظم عند الجرجانى

كارتينى
جامعة الإسلامية الحكومية بالوبوا
kartini@iainpalopo.ac.id

التجريد

عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر الجرجاني إذ تدور فكرة النّظم لديه حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات، وسمّى هذه العلاقات " النّظم "، وهو ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسببٍ من بعض، توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات حيث يقول "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانين وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم. يطبق الجرجانى قواعد النظم: 1) الذكر 2) الحذف، 3) التعريف، 4) التنكير، 5) التقديم والتأخير، 6) الاستعارة. النحو ثابتة لا تحتاج إلى جهد ومعاناة ،أما "النظم" فيكون في حسن التخير والنظر في وجوه كل باب،فينظر في صور الخبر ،والأساليب من شرط وتوكيد وتخصيص.

الكلمة الرئيسية: *النظم، الجرجاني*

المقدمة

اللغة ليست مجردا أصوات تنطلق من فراغ، وإنما رموز لأشياء أو أفكار، ويتفق كل مجتمع على ان أن أصواتا كعينة تمثل أشياء محددة سواء كانت هذه الأشياء أحداثا أو أفكارا. هذه العلاقة الرمزية في النظام الدلالى، وتشترك في الحقيقة مع طائفة أخرى من النظم يصدق عليها ما يصدق على اللغة من حيث كونها. ففصاحة الكلمة تتكونها من حروف متآلفة يسهاا على اللسان نطقها من غير عناء، مع وضوح معناه، وكانت المادة التى يتكون أي نظام من هذا النظم.

إن نظرية النظم من أهم النظريات في البلاغة العربية ، ومعناه التأليف ، ومعنى النظم في اصطلاح البلاغيين والنقاد ، تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عله من معاني النحو والموضوعة في أماكنها على الوضع الذي يقتضيه العقل.

النظم عند الجرجاني

1- الجرجاني

هو عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد، أبو بكر الجرجاني؛ ولد وترعرع في جرجان وبها توفي سنة 471م / 1078 هـ (حسين: 1993). وفّرت له جرجان بيئةً ثقافيةً وعلميةً مزدهرةً، وبها تتلمذ على يد شيخيه العالمين، أبي الحسين، محمّد بن عبد الوارث الفارسيّ النّحوي (القفطي:1955)، وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجانيّ(ضيفى: 1995).

ويبدو أنه لم يرتحل عن موطنه طلباً لعلمٍ وتحصيلاً لمعرفة، إلاّ أنه وعي ثقافة عصره وانكبّ على مصنّفات أسلافه ينهل منها العلم فتمثّلها وتناولها واستعان بها في وضع مصنّفاته، منها مصنّفاتُ سيبويه والآمديّ وغيرهما.

ذاع صيت الجرجاني واشتهر ذكره ليكون من أشهر علماء عصره، وليغدو قبلةً لطلبة العلم، إليها يحُجّون من كل حدبٍ وصوب، يأخذون عنه علوم البلاغة والبيان واللّغة والنّحو(المراغى: 1950). وقد تعدّدت جوانب معرفته وثقافته بتنوّع وسعة اطّلاعه، فصنّف في البلاغة والأدب والنّقد والنّحو، كما تفقّه في الدّين حتى عُدّ في طبقات فقهاء الشّافعية المتكلّمين على طريقة الأشعريّ (لاشين: بدون سنة)، وسطع نجمه في حقليّ البلاغة والنّحو إذ برع فيهما.

2 – مفهوم النظم

النظم هو الجمع والضم والأتساق والنظام والتأليف. قال ابن منظور: "النظم: التأليف، نظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر علي المثل، وكل شى قرنته بأخر أو ضمت بعضه إلي بعض قد نظمته، 000، والآنتظام والآتساق "(ابن منصور: 4469) والنظم عند الفيروز آبادي150:) هو التأليف، وضم شي إلي شي آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ونظمه : ألفه وجمعه في سلك فانتظم ...".

فالمعني اللغوي المشترك هو ضم الشئ إلي الشئ ، وتنسيقه علي نسق واحد ، كما تضم حبات اللؤلؤ بعضها إلى بعض ونحوه . وهذا هو الفلك الذى دار فيه المعنى الاصطلاحى للكلمة ، فقد دارت كلمة النظم بمفهوم إصطلاحى عندالمتكلمين فى حديثهم عن الاعجاز القرأنى واصبحت نظرية كاملة عندالقاضى الجرجانى والزمخشرى وأساسها المعنى اللغوى الذى هوضم الشئ الى الشئ وتناسقه.

فقد تكلم الخطابى فى النظم بالمعنى اللغوى الذى يعنى الضم والاتساق والخطاب يرى ان نظم القرأن أشد تلاؤما وتربطا من أى نظم أخر(الخطاب:23) ونرى كلمة النظم التى هى الضم مصطلحا عند القاضى عبد الجبار حيث يقول فى الفصاحة :-" اعلم ان الفصاحة لاتظهر فى افراد الكلام، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ..."(القاضى

عبد الجبار:199) لاشك ان تعريف القاضى عبد الجبار للفصاحة بالضم على طريقة مخصوصة هو المعنى المراد لكلمة النظم ، لذلك نجد عبد القاهر بعد ذلك يجعل البلا غة والفصاحة مترادفتان فى المعنى والمقصود بهما النظم.

وعبد القاهر يعرف النظم بانه توخي معاني النحو فيقول: "وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل علي قوانينه وأصوله" (الجرجانى:81) كما يذهب إلي أن لا نظم في الكلام ولاترتيب حتي يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها علي بعض وتجعل هذه بسبب من تلك (الجرجانى55). ومما لا شك فيه أن الزمخشري تأثربمفهوم النظم عن عبد القاهر، فالزمخشري يعنى بالنظمبيان الروبط والعلاقات بين الجمل وكيف يدعو الكلام بعضه بعضا وكيف يأخذ بعض بحجز بعض"(أبو موسى:236).

وهكذا تتبين الصلة الوثقية بين النظم اللغوى ومعناه الاصطلاحى، بين ذلك المدلول اللغوى الذى يعنى ضم الشئ إلى الشئ كما تضم حبات اللؤلؤ فى سلك، وهذا المفهوم الاصطلاحى الذى يعنى التأليف للكلام ونظمه بتوخى معانى النحو وإحكامه وسنن اللغة العربية.

شرح عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز بأن تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض ، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، لا يعدو تعلق اسم باسم، تعلق اسم بفعل، تعلق حرف بهما، وبذلك كان أول ربط بين النظم وعلم النحو. ولذلك يفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم:

- نظم الحروف: هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ،ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل،فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد.
- وأما نظم الكلم: تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعني في النفس،وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق.

إن الباحث المتتبع لدراسة عبد القاهر لنظرية النظم يرى أنه جعل النظم أساسا للنقد ومرجعا لبيان القيمة الفنية في العمل الأدبي ،كما أنه جعل من النظم قوانين ترشد الذوق العربي إلى الكشف عن مرتبة الكلام. وقد بذل أقصى جهده لتستقر فكرته في العقول ،حتى أضحت نظريته السليمةمرجع النقاد والباحثين ،فقد صنع ميزانا يستطيع به الناقد أن يزن الصورة البيانية ،ويرد عناصرها البلاغية إلى طريقة التأليف للعبارات ،ومنه استمدت فكرة البنية العميقة والبنية السطحية التي نادى بها اللغويون الغرب مثل تشومسكي،وأرسخ كذلك فكرة التعليل لكل ما

تستحسنه أو تستقبحه فيقول "لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من ان يكون لاستحسانك جهة معلومة وعلة معقولة (الجرجانى:236)

أفاد الإمام عبد القاهر الجرجانيّ كثيرا ممّا كتبه علماء النّحو واللّغة في تكوين وبناء فكرة النّظم (الصاوى: 1979)، إذ تدور فكرة النّظم لديه حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات، وسمّى هذه العلاقات " النّظم "، وهو ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسببٍ من بعض. والكلم ثلاث: اسمٌ، وفعلٌ، وحرفٌ، وللتعلّق فيما بينها طرقٌ معلومةٌ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسمٍ باسم، وتعلّق اسمٍ بفعل، وتعلّق حرفٍ بهما. والكلام لا يكون من جزءٍ واحدٍ، ولا بدّ لتحقّقه من وجود مسندٍ ومسندٍ إليه، وكذلك السّبيل في كلّ الحروف رأيته يدخل على كان وأخواتها.

وليس النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ ذلك الّذي معناه ضمّ الشّيئ إلى الشّيئ كيفما جاء واتّفق، كنظم الكلم الذي تقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النّفس، بل يجب أن تنساق دلالاتها وتتلاقى معانيها على الوجه الّذي يقتضيه العقل، حتى يعلق ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، فإذا فعلت هذا كلّه تكون قد استكملت فكرة النّظم من وجهة نظره (حسين: 1993).

ونوجز هنا أهمّ النّقاط الّتي تتكوّن منها نظريّة النّظم الجرجانيّة وفق ما جاءت في كتابه "دلائل الإعجاز ":

- المعاني وعاؤها الألفاظُ، والثّانية وظيفتها خدمة الأولى.
- العقلُ هو الّذي يحكم التقاء معاني الكلمات، فتنتظم وفقًا لما يقتضيه.
- لا بدّ في النّظم أن تُتَوّخى معاني النّحو، إذ يجب أن يوضع الكلامُ الوضعَ الّذي يقتضيه علم النّحو.
- ليس المهمّ معرفة عبارات النّحو نفسها، إنّما المهمّ معرفة مدلول تلك العبارات.
- الاستعارةُ وسائر ضروبِ المَجازِ من مُقتَضياتِ النّظمِ.
- لا نظمَ ولا ترتيبَ للكلِمِ حتّى يتعلّق بعضها ببعض، والتّعلّق هو الأساليبُ والأدواتُ النّحويّة.
- ليس المقصودُ بالنّظمِ ضمّ الشّيئ إلى الشّيئ كيفما اتّفق، بل لا بُدّ فيه من تتبّعِ آثار المعاني واعتبار الأجزاء مع بعضها.
- ليسَ النّظمُ إلاّ أن تضع كلامَكَ الوضعَ الّذي يقتضيه علم النّحوِ، أي أن تتوخّى فيه معاني النّحو.

النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات حيث يقول "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله،وتعرف مناهجه التي نهجت،فلا تزيغ عنها،وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تبخل بشيء منها" (الجرجانى 1930). وهذا التعريف الشامل يوضح مدى العلاقة بين علم النحو وعلم المعانى في تحديد نظرية النظم.

تطبيق النظم على النص عند الجرجاني

طبق الجرجاني قواعد النظم على النصوص فتناول دور علم المعاني في خدمة النظرية، ومن ذلك أن كل الكلام تشتمل الصدق والكذب، لأن منهما لايخبر عن الحصول شيئ أو عدم حصوله، ولو أنك تتبعت جميع الكلام لوجدته لا يخرج عن هذين النوعين ويسمى النوع الأول خبرا والنوع الثانى إنشاء. وتجد كل جملة مكونة من ركنين أساسيين هما المحكوم عليه والمحكوم به، ويسمى الأول مسندا إليه، والثانى مسندا، وأما ما عدا هما فهو "قيد" في الجملة وليس ركنا أساسيا (مصطفى أمين: 152-153).

المسند إليه يتضمن: المبتدأ الذى له خبر، والفاعل، ونائبه، وأسمائه، وأحوالههي النواسخ: الذكر، والحذف، والتعريف، والتنكير، التقديم، والتأخير وغيرها:

1) الذكر

كل لفظ يدل على معنى في الكلام خليق طبعا بالذكر، لتأدية المعنى المراد، فلهذا يذكر المسند إليه وجوبا، حيث إن ذكره هو الأصل ولا مقتضى للحذف، لعدم قرينه تدل عليه عند حذفه. وقد بترجع الذكر مع وجود قرينة تمكن من الحذف، حين لايكون منه مانع، فمن مرجحات الذكر. بيان ذلك أنه إذا لم يوجد في الكلام قرينة تدل على ميراد حذفه، أو وجدت قرينة ضعيفة غير مصحوبة بغرض آخر يدعو إلى الحذف، فلا بد من الذكر جوابا على الأصل، وقد تدعو الظروف والمناسبة إلى ترجيح، الذكر مع وجود قرينة تمكن من الحذف وذلك من الأغراض مختلفة، ترجع إلى أسالبي البلغاؤ فتجدهم قد ذكروا أحيانا مايجوز أن يستغنى عنه، وحذفوا مالا يوجد مانع من ذكره، فرجحو الذكر أحيانا والحذف أحيانا (الهاشمى:117).

2)- الحذف

وهو باب دقيق المسالك،عجيب الأمر،فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ومن لطيف الحذف قول ابن النطاح:

العين تبدي الحب والبغضا...وتظهر الإبرام والنقضا

درّة ما أنصفتني في الهوى...ولا رحمت الجسد المنضى

غضبى ولا والله يا أهلها...لا أطعم البارد أو ترضى

تقول هذه الأبيات في جارية كان يحبها ،والمقصود قول"غضبى"،والتقدير "هي غضبى"أو"غضبى هي" لا محالة ،إلا أنك ترى النفس كيف تتفادى إظهار هذا المحذوف،وكيف تأنس إلى إضماره،وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به.

وأشار سيبويه إلي كلمة التأليف التي هي مرادفة لكلمة النظم ، ولم يتعد مفهومها تأليف الجملة الواحدة إلي الجمل بعضها مع بعض . ويتضح ذلك مما ذكره في باب (أسماء القبائل والأحياء وما يضاف إلي الأب والأم) حيث يقول" –: فإن قلت : هذه تميم ، وهذه أسد ، فإنك تريد ذلك المعني، غير إنك إذا حذفت المضاف تخفيفا كما قال الله عزوجل (وأسال القرية) ... فأنت لم تغير ذلك المعني وذلك التأليف إلأ إنك حذفت ... " (سيبويه:247). ويقول الدكتور أحمد سعد في ذلك :" أن مقصود سيبويه من كلمة التأليف هنا هو نظم العبارة أو تأليف الجملة ، إنطلاقا من متجهه النحوي الذى لم يكن يعني إلابتركيب الجملة وحدها دون تركيب الجملة مع الجمل الأخري" (أحمد سعيد محمد:229).

وإذاكان النظم قائما على توخى معانى النحو التى إستنها النحاة من سنن العربية فى إستقامة الكلام وحسنه وقبحه، فإنها تقاس عند سيبويه على ذلك المقياس.فقد ذكر سيبويه فى بابالإستقامة من الكلام والإحالة):"فأما المستقيم الحسن فقوللك :اتيتك أمس، وسآتيك غدا، وأماالمستقيم القبيح فأن تضع اللفظ فى غير موضعه نحو قولك: قدزيدارأيت....(الجاحظ:76) فإن الكلام المستقيم –عنده–هو الذى وضعت كل لفظة منه فى موضعها المقدر لها فى عرف اللغة، أما المستقيم القبيح فهو ذلك الكلام الذى لم يرع قونين اللغة، فوضعت ألفاظه فى غيرماقدرلها .

و الجاحظ قد عرف معنى النظم ، وأشار إليه فى كتاباته فهو كما يقول شوقى ضيف مؤسس البلاغة العربية . فلاريب أن إحساس الجاحظ العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية جعله يؤمن أن إعجاز القرآن فى نظمه ، ويؤلف فى ذلك كتابه المفقود (نظم القرآن) الذى يشير إليه فى كتاب (الحيوان (إذ يقول : " ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف"

3)– التعربف

أن كلا من المعرفة والنكرةى يدل على معين. أن المعرفة يعرف منها ذات معين، ويفهم منها كونه معلوما للسامع لدلالة اللفظ على التعيين، والتعيين فيهان إما بنفس اللفض من غير احتياج إلى قرينة خارجية كما فى العلم، وأما بقرينة بقرينة تكلم أو خظاب أو غيبة كما في

الضمائر، أو بقرينة إشارة حسية كما في الإشارة، وأما بنسبة معهودة كما فى الأسماء الموصولة، وأما بحرف وهو المعرفة بأل. والنداء، وأما بإضافة معنوية وهو المضاف إلى واحد مما ذكر ما عدا المنادى (الهاشمى: 125).

يؤتى المسند إليه ضميرا لأغراض:

- كان الحديث في مقام "التكلم" كقوله عليه الصلاة والسلام (أنا النبى لاكذب، وأنا ابن عبد المطلب
- كان الحديث فى مقام "الخطاب" كقول الشاعر:

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى وأشمت بى من كان فيك يلوم

- كان الحديث في مقام "الغيبة" لكون المسند إليه مذكورا أو في حكم المذكور لقرينة. نحو تبارك الله وتعلى (الهاشمى: (126)

4)- التنكير

النكرة يفهم منها ذات المعين فقط. ولا يفهم منها كونه معلوما للسامع. ويؤتى بالمسند إليه نكرة: لعدم علم المتكلم بجهة من جهات التعريف حقيقة أو دعاء، مثل جاء هنا رجل يسأل عنك. إذا لم تعرف ما يعنيه من علم أو صلة أو نحوهما، وقد يكون لأغراض أخرى: (1) التكثير أى باعتبار الكميات والمقادير نحو " إن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك (رسل كثيرون)،(2) والتقليل نحو: ورضوان من الله أكبر شيئ أى قليل من الرضوان أكبر من كل شيئ ، (3) والتعظيم والتحقير، أي بحسب رفعه والشأن وعلو الطبقة نحو قول أبى السمط: له حاجب عن كل أمر يشينه# وليس له عن طلب العرف حاجب، (4) وإخفاء الأمر نحو: قال الرجل إنك انحرفت عن الصواب تخفى عن الصواب تخفى اسمه، حتى لا يلحقه أذى، (5) القصد الإفراد ،حو: ويلل أهون من ويلين أى ويل واحد من ويلين،(6) وقصد النوعية نحو: لكل داء دواء أى لكل نوع من الداء نوع من الدواء (الهاشمى: 137-138).

5)- التقديم والتأخير

وهو باب كثير الفوائد،جم المحاسن،بعيد الغاية،وهو على وجهين:

الأول: تقديم على نية التأخير :كخبر المبتدأ في قولك:"منطلق زيد"،فمعلوم أن منطلق لم تخرج بالتقديم عما كانت عليه من كونها خبر المبتدأ ومرفوعة بذلك.

الثاني: تقديم لا على نية التأخير وهو أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم،وتجعله بابا غير بابه،وإعرابا غير إعرابه،وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل منهما أ، يكون مبتدأ والآخر خبرا له،فتقدم تارة هذا على ذاك،وأخرى ذاك على هذا لعلة بيانية ولفضل بلاغي ،ومن

أمثلة ذلك "الاستفهام بالهمزة" فإن موضع الكلام إذا قلت:"أفعلت؟" فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه،وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده،أما إذا قلت:"أأنت فعلت؟"فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل ،وهنا يتجلى دور النحو والنظم في تحديد الدلالة ،وأن بينهما رباط قوي لا ينفصم ،وهذا ما يميزاللغة العربية.

ب)- جمال الاستعارة من حسن النظم

الاستعارة لغة: من قولهم، استعار المال: طلب العارية. واصطلاحا: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصل. والاستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا ولكنه أبلغ منه (الهاشمى 303).

من يد هذا أن الاستعارة أصله من التشه الذى خلف أحد طرفيه، ووجه شبه، وأدذته. لأن التشبيه مما نناهى في البلاغة. فلا بد فيه من ذكر المشبه به وهذا اعتراف بتبابنهما، وأن العلاقة ليست إلا التشابه والتدانى. بحلاف الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد والامتزاج. وأن المشبه والمشبه به صار معنى واحد ويصدق معنى واحد،فالاستعارة لا عقلى علاقته المشابهة.(الهاشمى 304).

وقد ربط الجرجاني الاستعارة بعلم المعاني ربطا بديعا ، وأوضح أن من أنواع الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا بعد العلم بالنظم، ويذكر أنها على غرابتها ولطفها إنما تم لها الحسن بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير ،ومن دقيق ذلك أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى "واشتعل الرأس شيبا" لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، وليس الأمر ذلك،إنما الجمال أن تعلم أن "اشتعل" للشيب في المعنى ،وإن كان للرأس في اللفظ،فهل إذا أخذت اللفظ وسندته إلى الشيب صريحا فتقول: "اشتعل شيب الرأس" هل ترى الروعة التي كنت تراها؟، فما السبب في أن "اشتعل " إذا استعير "للشيب" كان له الفضل؟، السبب أنه يفيد لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل الشمول، وأنه قد شاع فيه،وعمّ جملته حتى لم يبق من السواد إلا ما لا يعتد به.

ونظير ذلك في التنزيل قولا الله عز وجل:"وفجرنا الأرض عيونا"،فإن التفجير للعيون في المعنى لكنه أوقع على الأرض في اللفظ،وذلك أفاد أن الرض قد صارت عيونا كلها،وأن الماء كان يفور من كل مكان،ولو قيل "فجرنا عيون الأرض"لم يفد ذلك ولم يدل عليه ،ولكان المفهوم أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض. ويمكن إجمال ما قدم عبد القاهر فيما يلي:

أولا: أنه لاميزة للألفاظ من حيث هي أصوات مسموعة، إذ ليس للفظة قيمة ذاتية بمعزل عن السياق، ولكنها تحسن بمراعتها للمعنى المراد وبمكانها مع أخواتها في الجملة الواحدة.

ثانيا: توظيف المعاني النحوية في السياق لخدمة المعاني العامة للنص الأدبي بحيث لا يمكن الوقوف على معاني النص إلا عن طريق المعاني النحوية ، وقد كان تفسير الجرجاني للنظم بأنه (توخي معاني النحو وعلاقاته) اللبنة التي قامت عليها مباحث علم المعاني مستمدة من أحكام النحو (سليمان: 176)

إن غاية ما يسعى إليه عبد القاهر من نظريته هو الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى مستوى رفيع؛ ليأتي التعبير عن المعاني مساو للحقيقة الراسخة في نفس السامع و القارئ و المتكلم، دون زيادة أو نقصان، ودون حاجة إلى اجتهاد في تأويل أو تفسير، بل يجب أن تأتي صور الكلام مساوية المعاني صورة بصورة، حسا وحركة وحيويةو لونا و مفهوما دون ملابسة"، و يبدي عبد القاهر رأيه في هذه المزية اللغوية بقوله:" و اعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة، من غير أن تغير من لفظه شيئا. أو تحول كلمة عن مكانها إلى مكان آخر، و هو الذي وسع مجال التأويل و التفسير، حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر، و يفسرون البيت الواحد عدة تفاسير، و هو على ذلك الطريق المذلة التي ورط كثيرا من الناس في الهلكة، و هو مما يعلم به العاقل شدة الحاجة إلى هذا العلم، و ينكشف معه عوار الجاهل به".

النظم والنحو

1- الفرق بين النظم والنحو

عندما نحتكم إلى نصوص عبد القاهر حول النظم الذي عده دعاة إحياء النحو رسما لطريق جديد في النحو نجد تفرقة واضحة بين النحو والنظم، والنّحو عند الجرجاني مقياسٌ به يستقيم الكلام، وبالاعتماد عليه يكشف النّقاب عن خفيّ الدّلالات ومختلف المقاصد، وقد ذهب في ذلك إلى عدم تعلّق الفكر بمعاني الكلم مجرّدة من معاني النّحو وتوخّيها، إذ يقول: " ومّما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، أنّه لا يُتصوَّرُ أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا ومجرّدةً من معاني النّحو، فلا يقوم في وهمٍ ولا يصحّ في عقلٍ أن يتفكّر متفكّرٌ في معنى فعلٍ من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكّر في معنى اسمٍ من غير أن يريد إعمال فعلٍ فيه وجعله فاعلاً له أو مفعولاً... وإن أردتَ أن ترى ذلك عيانًا، فاعمد أيّ كلامٍ شئتَ وأزل أجزاءهُ

عن مواضعها وضعاً يمتنعُ معهُ دخولُ شيئٍ من معاني النّحو فيه، فقل في (قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ): من نبك قفا حبيب ذكرى منزل؛ ثمّ انظر، هل يتعلّق منك فكرٌ بمعنى كلمةٍ منها؟"(الصاوى: 1979).

النحو ثابتة لا تحتاج إلى جهد ومعاناة ،أما "النظم" فيكون في حسن التخير والنظر في وجوه كل باب،فينظر في صور الخبر ،والأساليب من شرط وتوكيد وتخصيص ،فيجيء بذلك حيث ينبغي له ،ويحتاج ذلك قسطا كبيرا من التذوق والحس الأدبي والسليقة السليمة،وتلك مهمة فوق مهمة البحث في الصواب والخطأ ،وهنا ارتبطت البلاغة بالنحو ارتباطا وثيقا ،حيث تبدأ مهمتها من حيث تنتهي مهمة النحو،لأنها ستتناول الصورة الصحيحة التي تدور حول غرض واحد لترى أيهما أرفع في درجات البلاغة ولماذا (سليمان: 176)

من شاء أن يحكم على مدى الصواب والخطأ في نظرية النظم عليه أن يعالج قضايا التقديم والتأخير،والفصل والوصل،والإظهار والإضمار،والاستفهام ،والنفي،والحذف ،والتعريف والتنكير،وغيرها من مباحث علم المعاني ،وقد طبق الجرجاني بالفعل هذه النظرية تطبيقا عمليا منهجيا على آيات من كتاب الله، وعلى نصوص من أشعار العرب ،فجمع بذلك بين النظرية والتطبيق ،وأسس لفرع هام من الدراسات البلاغية النقدية أفاد كل من خلفه في هذا المضمار.

2- علاقة النّظم بالنّحو عند الجرجاني

إلى جانب شهرة الجرجاني في حقول البلاغة وعلم المعاني والبيان وعلوم القرآن، فقد حاز مكانة متقدّمة بين النّحويين واللّغويين، ولعلّ كتب التّراجم ترجح هذا القول(ابن شُهبة الأسديّ: 95)، فإضافةً إ لى أنه كان تلميذًا لأبي علي الفارسيّ وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كما أشرنا في ترجمتنا له آنفًا، فإنّ أعماله في مجال الدّراسات النّحويّة والصّرفيّة والعروضيّة تدلّ على مكانته النّحويّة المتقدّمة وتمكُّنه من هذا العلم.

فقد أفاد الجرجاني من جهود سابقيه في هذا الميدان أمثال " سيبويه " الذي تحدّث عن باب المسند والمسند إليه، وباب الإخبار عن النّكرة والاستفهام، وأشار إلى بعض فنون البيان كالتّشبيه والمجاز؛ كما أفاد من مناظرات متّى بن يونس وأبي سعيد السّيرافي وغيرهما، واستطاع بتمثّله وإحاطته واعتماده على آراء سابقيه أن يعطي المفهوم الواسع لعلم اللّغة وأن " يجعل من النّحو ذلك العلم الّذي يبحث ويشرح العلاقات الّتي تقيمها اللّغة بين الأشياء، إن لم يكن النّحو نفسه هذه العلاقات. ولذا كان تصوّره للنّحو تصوّرًا جديدًا ارتبط بعلم البلاغة "(الباخرزي، أبو الحسن عليّ بن الحسن: 17. وابن الأنباري: 363).

وفي دفاعه عن النّحو وبيان قيمته ومكانته لديه كعالم لغويّ، نجد الجرجانيّ يخاطب من زهدوا في النّحو وقلّلوا من شأنه كاشفاً لهم خطره ومكانته المهمّة، ندرك ذلك عندما يقول: " وأمّا زهدهم في النّحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الّذي تقدّم، وأشبه أن يكون صدًّا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه، ذلك لأنّهم لا يجدون بدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه. إذا كان قد علم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون لها، وأنّه المعيار الّذي لا يتبيّن نقصان كلامٍ ورجحانه حتّى يعرض عليه، والمقياس الّذي لا يعرف صحيحٌ من سقيم حتّى يرجع إليه؛ ولا ينكرُ ذلك إلاّ من أنكر حسّه، وإلاّ من غالط في الحقائق نفسه. وإذا كان الأمر كذلك فليت شعري ما عذر مَنْ تهاونَ به، وزهد فيه، لم ير أن يستقيه من مصبّه، ويأخذه من معدنه، ورضي بالنّقص والكمال لها معرض، وآثر الغبينة وهو يجد إلى الرّبح سبيلا؟"(أحمد مصطفى:47-48).

تجاوز النّظم لدى الجرجاني حدود الاصطلاح الّذي كان سائداً منذ القرن الثّاني الهجريّ في بيئة النّحاة على وجه الخصوص(الجرجاني:1972)، ليغدو عنده عملاً منهجيًّا مدروساً ومنظّماً يتوخّى دراسة البلاغة في ضوءٍ جديدٍ يقوم على دعامةٍ من النّحو وأحكامه، بل ويسعى أيضاً إلى توسيع أفق النّحو وتطويع أدواته حتى يتقرّى مواطن الحسن في اللّغة شعريّةً كانت أو غير شعريّة، دون أن يقتصر في ذلك على بيان العلاقة البنيويّة بين أجزاء الجملة الواحدة، بل يمتدّ إلى دراسة العلاقة القائمة بين الجملة والجملة داخل نفس الخطاب.

وبوسعنا تمثّل هذا المنهج بالعودة إلى دلائل الإعجاز؛ حيث ينصّ الجرجاني قائلا: " فلست بواجدٍ شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النّظم، ويدخلُ تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنىً من معاني النّحو قد أصيبَ به موضعُهُ ووضع في حقّه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستُعملَ في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحّة نظمٍ أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه، إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصّحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضلُ إلى معاني النّحو وأحكامِه، ووجدته يدخل في أصلٍ من أصوله، ويتّصلُ ببابٍ من أبوابه."(بلعبد:2002)

كما وينصّ أيضاً: " واعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الّذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف منهجه الّذي نهجت فلا تزيغ عنه، وتحفظ الرّسوم الّتي لك فلا تخلّ بشيئ منها، وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه النّاظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كلّ باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه الّتي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ

ينطلقُ، وينطلقُ زيدٌ، ومنطلقٌ زيدٌ، وزيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلقُ، وزيدٌ هو منطلقٌ."(الجرجاني:1972)

ونستفيد من ذينك النّصّين أن النّظم في جوهره لدى الجرجاني هو النّحو في أحكامه، وليس المقصود بأحكام النّحو مجرّد مراعاة الإعراب والقواعد الّتي تقف بالنّحو عند حدود الحكم بالصّحّة والفساد ممّا يعتبر من لوازم الكلام، ولكنّ المقصود أيضًا هو مراعاة (صورة المعنى) في الكلام، أي مراعاة العلاقة البنيويّة أو النظميّة الّتي يمكن من خلالها أن نتبيّن ما للنّظم من مزية أو فضل؛ وذلك بدرجاتٍ متباينةٍ في الفهم والتأوّل. ولو كان المقصود بأحكام النّحو الاكتفاء عند الحكم بالقواعد النّحويّة فحسب " لكان البدويّ الّذي لم يسمع بالنّحو قطّ ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئًا ممّا يذكرونه لا يتأتّى له نظم كلام، وإنّا لنراه يأتي في كلامه بنظمٍ لا يحسنه المتقدّم في علم النّحو."(الجرجاني: 1972)

من هنا يتعيّن إذن، أنّ نظريّة النّظم تستند إلى النّحو كأساسٍ علميٍّ على أن يفهم أنّ هذا النّحو يتحرّك بين حدّين متلازمين:

الأول: حدٌّ معياريٌّ يحكم بالصّحة والخطأ بناءً على قواعد علميّةٍ مضبوطةٍ تجد نموذجها المفضّل في اللّغة بدلالاتها الوضعيّة الّتي يتقلّص فيها العدول أو يكاد إلى درجة الصّفر مثل (زيدٌ منطلقٌ) و(خرج عمرو)...الخ.

الثاني: حدٌّ وصفيٌّ ينطلق من الحدّ الأوّل ليتجاوزه إلى تعليل المزية الّتي تجد نموذجها المفضّل في اللّغة بدلالاتها المجازيّة المتمثّلة في ظواهر من قبيل الاستعارة، والكناية، والتّمثيل، والتّقديم والتّأخير، والفصل والوصل، إلى غير ذلك مما نجده في لغة الشّعر ولغة القرآن.

واللّغة لدى الجرجاني ليست ألفاظًا، بل " مجموعُ الرّوابِطِ الّتي نقيمُها بين الأشياء بفضل الأدوات اللّغويّة، وتلك الرّوابطُ هي المعاني الّتي نعبّر عنها، ومن ثُمّ كانت أهميّتها وما لها من صدارةٍ على الألفاظ." (الجرجانى: 1972) وعن طريق هذا التّصوّر استطاع عبد القاهر ردم الهوّة الفاصلة بين النّحو والبلاغة بجعلهما أساسًا واحدًا لقيام الشعريّة أو ما يسمّى بـ " علم الأدب "، وبهذا ارتكز النّقد على منهج لغويّ رصين، هو " منهج النّحو الّذي لا يقف عند حدود التّحكّم بالصّحّة والفساد، بل يمتدّ في البحث عن العلاقات التي تقيمها اللّغة بين الكلمات، وإلى اجتلاء معانيها، وكشف غامضها، وبذلك اتّسع أفق النّحو وغنيت مادّته، ودخل فيه كلّ ما يراعى في النّظم من تقديمٍ وتأخيرٍ وما إليه من أسباب الجودة وعدمها، ممّا استقرّ عليه العرف فيما بعد بجعلها من علم المعاني، ومن ثم فإنّ الأساس عنده هو النّحو، على أن يشمل النّحو علم المعاني، وأن يتجاوز القواعد النّحويّة إلى الجودة الفنيَّة."(مندور: 1948)

ولشوقي ضيف رأيٌ يوضح مفهوم نظريّة النّظم وعلاقتها بالنّحو لدى الجرجاني، يقول: إنّ " عبد القاهر استطاع في الدّلائل أن يفسّر نظريّة النّظم تفسيراً ردّها فيه إلى المعاني الثّانية، أو كما قلنا إلى المعاني الإضافيّة الّتي تلتمس في ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النّفس، وهي معانٍ ترجع إلى الإسناد، وخصائصَ مختلفةٍ في المسند إليه والمسند، وفي أضرب الخبر، وفي متعلّقات الفعل من مفعولاتٍ وأحوال، وفي الفصل بين الجمل والوصل، وفي القصر، وفي الإيجاز والإطناب، وهي نفسها الأبواب الّتي ألّف منها من خلفوه علم المعاني"(حسين: 1967)

إنّ المعاني الثّانية التي يشير إليها ضيف، أو المعاني الخفيّة (ضيفى: بدون سنة)، هي المزية والأساس في فكرة النّظم البلاغيّة لدى الجرجاني، وقد جعلها في كثيرٍ من الأحيان الأساس والرّكيزة للمعاني الأولى، وهي لديه لطالما ارتبطت بتوخّي معاني النّحو وأحكامه وما يتّصل به من التّراكيب والدّلالات المختلفة، وهو يقول في ذلك: " فها هنا عبارةٌ مختصرةٌ وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللّفظ، والّذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللّفظ معنىً ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنًى آخر كالّذي فسّرت لك."(الجرجاني: 1972)

ومن الأمثلة والشّواهد الّتي يأتي بها الجرجانيّ ليبرهن أفكاره تلك ويثبتها أنّه يقول: " إنّك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبّع بعضها بعضًا من غير أن تتوخّى فيها معاني النّحو، لم تكن صنعت شيئًا تدّعي به مؤلّفا، وتشبه معه بمن عمل نسجًا أو صنع على الجملة صنيعًا، ولم يتصوّر أن تكون قد تخيّرت لها المواقع... مثال ذلك أنّك إن قدّرت في بيت أبي تمّام:

لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُهُ *** وأرى الجنى اشتارته أيدٍ عواسِلُ

أنّ " لعاب الأفاعي " مبتدأ، و " لعاب " خبر كما يوهمه الظّاهر، أفسدت عليه كلامه، وأبطلت الصّورة الّتي أرادها فيه، وذلك أنّ الغرض أن يشبّه مداده بأرى الجنى على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصّلات أوصل به إلى النّفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السّرور واللّذة عليها، وهذا المعنى إنّما يكون إذا كان (لعابه) مبتدأً و(لعاب الأفاعي) خبرًا.

فأمّا تقديرك أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأً و (لعابه) خبرًا، فيبطل ذلك ويمنع منه البتة، ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أو يكون مرادًا في مثل غرض أبي تمّام، وهو أن يكون أراد أن يشبّه لعاب الأفاعي بالمداد، ويشبّه كذلك الأرى به، فلو كان حال الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض كحال غزل الابريسم، لكان ينبغي أن تتغيّر الصّورة الحاصلة من نظم كلمٍ حتّى تزال

عن موقعها كما لا تتغيّر الصّورة الحادثة عن غزل الابريسم بعضه إلى بعض حتّى تزال الخيوط عن مواقعها"(الجرجاني: 1972

الخاتمة

النّظم ليس نظم الكلم الذي تقتفي في آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النّفس، بل يجب أن تنساق دلالاتها وتتلاقى معانيها على الوجه الّذي يقتضيه العقل، حتى يعلق ببعض ويبني بعضها على بعض.

اعتبر الجرجانيّ النّحو والبلاغة أمران متلازمان لا انبتات بينهما ولا انفصال، معتبراً الأوّل مكوّنًا أساسيًا في تفكير المبدع وعقله متى قال أو خطّ كلاما، موسّعًا بذلك مفهوم علم النّحو الّذي كان يقتصر حتّى وضعه نظريّةَ النّظم، على درس أواخر الكلم وكيفيّة ضبطها احتكامًا للمعياريّ من القواعد، مضمنًا إيّاه ما يُسمّى اليوم بـ " علم المعاني " و " علم الدّلالة "، فحرّره بذلك من قيود المصطلحات والقواعد والقوانين الجافّة، وكان لديه ذو وظيفةٍ فنيّةٍ وبلاغيّة، إذ به وحده يتمّ الكشف عن الخفيّ من معاني الكلام.

الغاية عبد القاهر من نظرة النظم هو الوصول بتعبير اللغوية إلى مستوى رفيع؛ ليأتي التعبير عن المعاني مساو للحقيقة الراسخة في نفس السامع و القارئ و المتكلم، ويستطيع أن ينقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة، من غير أن تغير من لفظه شيئا.

المقصود بأحكام النّحو مجرّد ليس مراعاة الإعراب والقواعد الّتي تقف بالنّحو عند حدود الحكم بالصّحّة والفساد ممّا يعتبر من لوازم الكلام، ولكنّ المقصود أيضًا هو مراعاة (صورة المعنى) في الكلام، أي مراعاة العلاقة البنيويّة أو النظميّة الّتي يمكن من خلالها أن نتبيّن ما للنّظم من مزية أو فضل؛ وذلك بدرجاتٍ متباينةٍ في الفهم والتأوّل.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

ابن منصور،محمد بن مكرم. (2010). *لسان العرب*. بيروت: دار المصادر.

أبو موسى، محمد محمد. *البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى*. القاهرة: دار الفكر العربي

أمين مصطفى، وعلى الجارم. (2007). *البلاغة الواضحة*. *جاكرتا* : روضة فريس.

أحمد الهاشمى. (1960). *جواهر البلاغة في المعانى والبيان والبديع*. سورابايا: مكتبة الهداية.

أحمد سعد محمد. (2009). *الأصول البلاغة في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي*. مكتبة آداب للطباعة والنشر والتوزيع.

الباخرزي، أبو الحسن عليّ بن الحسن. *دمية القصر وعصرة أهل العصر*؛ تحـ: الحلو، عبد الفتاح محمد. دار الفكر العربي.

بلعيد، صالح. (2002). *نظريّة النّظم*. دار هومة. الجزائر: دار هومة.

الجرجانيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد. (1972). *الجُمَلْ*. حيدر علي. دمشق.

الخطابى، الرمان، عبد القاهر الجرجانى. (1979). *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن*. مصر: دار المعارف.

حسين، نصر الدّين إبراهيم أحمد. (1993). *الإمام عبد القاهر الجرجاني، حياته ومصادر ثقافته*. المنصودة: دار الفتح.

_____. (2005). *نظريّة الأسلوب الأدبيّ عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ*. ماليزيا: الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا.

لاشين، عبد الفتّاح. (بدون سنة). *التّراكيب النّحويّة من الوجهة البلاغيّة عند عبد القاهر*. الرّياض: دار المريخ.

الجاحظ. (1950). *الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون*. المجمع اللغوي.

الجرجانيّ، عبد القاهر. (1380). *دلائل الإعجاز* تحـ: رضا، محمد رشيد. مصر: طبعة المنار.

سيبويه. (2014). *الكتاب*، المحقق عبد السلام محمد هارون. الخانجى.

الصّاوي، أحمد عبد السّيّد. (1979). *النّقد التّحليلي عند عبد القاهر الجرجاني*؛ الهيئة المصريّة العامة للكتاب مصر: الاسكندرية.

ضيفى، شوقي. (1965). *البلاغة تطوّر وتاريخ*. مصر: دار المعارف.

الفيروز آبادى، محمد بن يعقوب. (2005). *قاموس المحيط*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

القاضى عبد الجبار بن أحمد. (1380). *المغنى في أبواب التوحيد والعدل*. مصر: الشركة العربية.

مراغي، أحمد مصطفى. (1950). *تاريخ علوم البلاغة والتّعريف برجالها*، مصر.